الممالیك والدول الإسلامیة في آسیا

obeikandl.com

obeikandl.com

المماليك والدول الإسلامية في آسيا

حرص سلاطين المماليك في مصر على بسط نفوذهم السياسي والديني على الحجاز أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين، وكان شرفًا عظيمًا ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة خادم الحرمين الشريفين، والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة ، وكان سلاطين المماليك في مصر يبدون اهتمامًا خاصًا بالحجاز وعناية كبرى بشؤونه ، ولم يقتصر ذلك الاهتمام وعند عمارة المسجد النبوي ، وإرسال كسوة الكعبة ، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذهم السياسي على الحجاز، ومما ساعد المماليك على بسط نفوذهم السياسي على الحجاز هو وقوع الخلاف بين أشراف الحجاز ، ففي سنة ١٢٦٦م قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمارة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز ، فانتهز بيبرس هذه الفرصة، وتدخل للصلح بينهما، وكتب إلى جماز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف تقليدًا بذلك من بيبرس، وامتثل جماز لما قاله بيبرس.

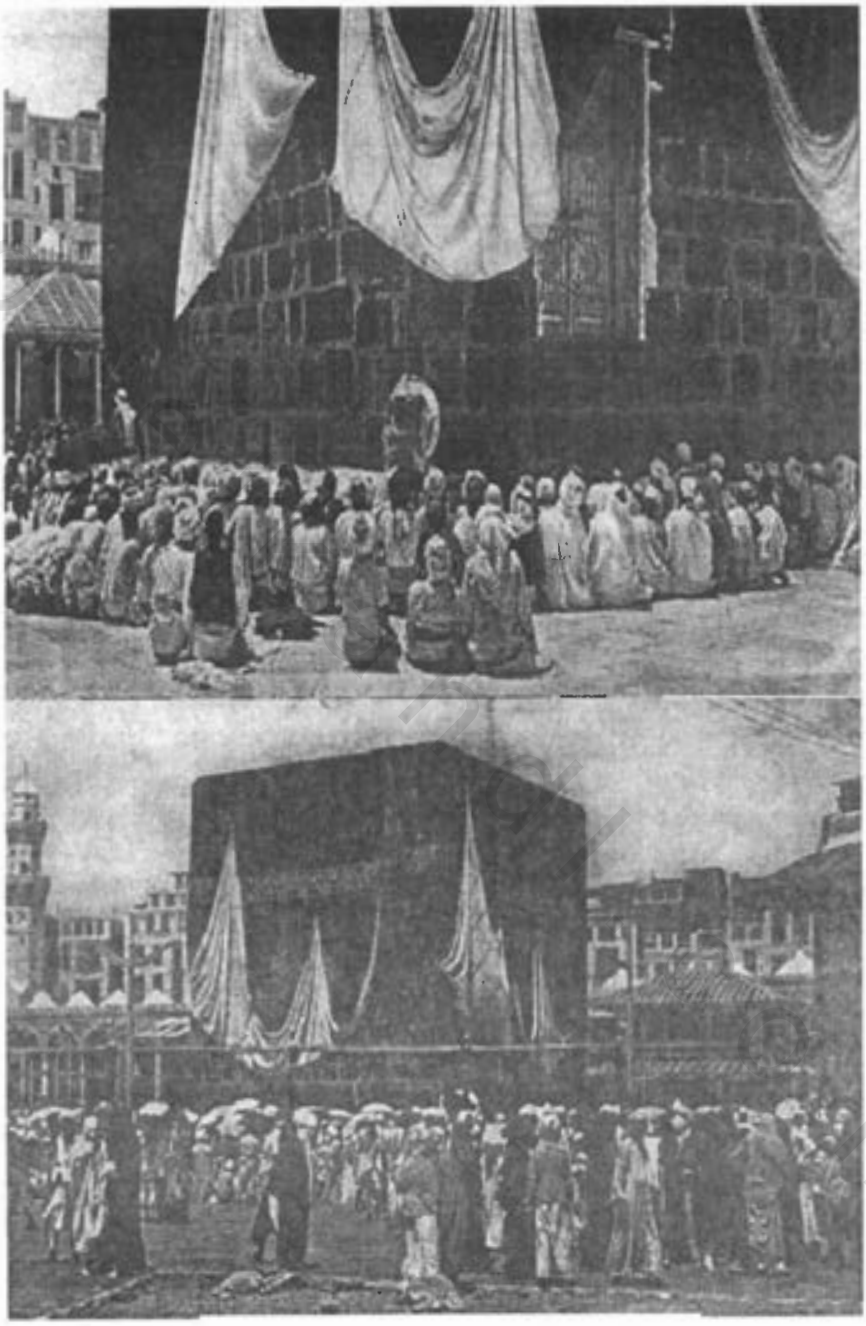

الكعبة أيام عصر المماليك

وفي سنة ١٢٦٨م وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي نمي وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس ، وانتهز بيبرس أيضًا هذه الفرصة للإصلاح بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعًا، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة بشرط أن لا يجمعوا من أحد مكوسًا، وألا يمنع أحد من زيارة البيت ، واشترط بيبرس على أميري مكة أن يُخطب باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يضمن له السيادة السياسية على الحجاز، وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليدًا بالإمارة، وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام، ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ، ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن نفذ بيبرس عزمه سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م ، فزار المدينة، وغسل الكعبة بيديه، وانتهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه ، وهو الأمير شمس الدين مروان نائبًا عنه في مكة ، ليكون الحل والعقد على يديه.

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد بيبرس، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك.

الظاهر بيبرس

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر ، وكانوا يرسلون الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس، وكان هو يرد على تلك الهدايا بأحسن منها ، وسبب هذه العلاقة أن الخلافة العباسية بعد قيامها في مصر جعلت لسلاطين المماليك نوعًا من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس، وهي الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية.

وقد استمرت هذه العلاقة بين ملوك اليمن وسلاطين المماليك حتى سنة ١٣٠٣م عندما تولى ملك اليمن عزيز الدين داود ، فأظهر التمرد على دولة المماليك، ولم يستمر هذا التمرد طويلًا ، فسرعان ما عادت العلاقة بين ملوك اليمن وسلاطين المماليك إلى طبيعتها، ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم وبعض من جهة، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى أتاحت لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شؤون اليمن وإدعاء هيمنتهم على ملوكهم، من ذلك أن الملك سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٥م أن يمده بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم

أنحاء اليمن، فأمده السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك في مصر، ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية.

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بدولة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان، فقد استطاع محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دحلي «١٣٢٥ – ١٣٥١م» في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة، ومحالفة سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من ناحية أخرى، ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١م يطلب معونته ضد المغول، ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسعي لكسب تأييد السلطان الناصر محمد، بل حاول أيضًا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة، فأجابه الخليفة المستكفى بالله العباسي إلى رغبته، وقد حرص فيروز شاه الثالث – الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ – على اتباع نفس السياسة.

وهكذا يتضح لنا كيف ان دولة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقًا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها.